أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

شرح الكلمات:

أَصفَى: أصفَى فلانًا بكذا: آثرَه به واختصَّه (الأقرب).

التفسير: لقد ضرب الله هنا مثالاً للقلق النفسي واللوم اللذَين يعيشهما المشرك. فقال: انظروا إلى غرابة الوثنيين؛ فهم يخصّون الله بالبنات، ويستأثرون لأنفسهم بالبنين من جهة، ومن جهة أخرى يعبدون هذه الإناث نفسها التي يحتقرونها. فكأنهم يضطرّون، نتيجة تركهم اللهَ تعالى، للسجود أمام نفس المخلوق الذي يعدّونه ذليلاً مُهانًا.

مع العلم أن قوله تعالى ﴿إنكم لتقولون قولاً عظيمًا﴾ يعني أن قولكم هذا غايةٌ في السخف والغباء؛ ذلك أن لفظ "العظيم" إذا جاء وصفًا للشيء القبيح فيعني أنه غاية في القبح والشناعة، وإذا جاء وصفًا للشيء الحسن فيعني أنه غاية في الحسن والجمال. فيخبرنا الله تعالى أن المشرك يصبح معتوه العقل، فيتكلم بكلام لا يتفوه به شخص عاقل.

ويحضرني بهذه المناسبة حادث لطيف يكشف لنا تمامًا عقلية المشرك، وقد حصل مع أستاذي المكرم حضرة المولوي نور الدين- اللهم ارفَعْ درجاته كثيرًا- الذي علّمني القرآن الكريم. لا شك أن الله ﷻ قد وهب لي الآن من علم القرآن كثيرًا، بل إن أستاذي نفسه كان يقول لي: لقد سمعتُ منك من معارف القرآن ما لم أعرفه قطُّ، ولم أقرأه في كتب الأولين؛ ولكن الحق أن أستاذي هو الذي غرَس في قلبي حبَّ هذا الكتاب العظيم، وأرشدَني إلى الطريق السليم للتفسير، وأرسى الأساس الذي استطعتُ رفع البناء عليه؛ لذا لا يزال قلبي يدعو له دومًا.

كان حضرته يعمل طبيبًا ملَكيًّا لدى أحد المَهَراجات لولاية جامون بكشمير. ولما تُوفِّي المهراجا خَلَفَه ابنُه المهراجا "برتاب سنغ"، فأمر بنفي أستاذي من جامون. والسبب أنه كان لحضرته علاقاتٌ حميمة مع الراجا "أمر سنغ" والراجا "رام سنغ"، وهما أب وعم للمهراجا الحالي لجامون. فتوهّم المهراجا "برتاب سنغ" أن أستاذي سوف يدسّ السمَّ في طعامه ويقتله بإيماءة من صديقَيه. فبعد أن تم نفيُه هاجر إلى قاديان، ونتيجةً لتقواه وعلمه انتُخب الخليفةَ الأول في جماعتنا. وكان يحكي لنا حادثًا حصل أثناء عمله في جامون. قال له المهراجا ذات يوم: أيها الأستاذ، هل أنت أيضًا تحتفظ بصنم في بيتك أم لا؟ قال: لا. نحن لا نحتفظ بالأصنام، لأن هذا حرام في ديننا. فتحير المهراجا قليلاً وقال: أنصحك أن تضع عندك في البيت تمثال الإلهة السوداء* على الأقل، لأنه إله جبار يُلحق أضرارًا فادحة. قال: لا يمكن أن نضع تمثال الإلهة السوداء أيضًا. قال: أفلا تصاب بخسائر إذنْ؟ قال: لا، يا مهراجا. ففكَّر مليًّا في تردد ثم قال: لقد فهمت القضية الآن. فلو أردتُ مثلاً أن أعاقبك في ولايتي "جامون" لعاقبتُك بدون شك، ولكن إذا هربتَ من ولايتي إلى منطقة سيالكوت مثلاً فلن أتمكن من عقابك. ونفس الحال في هذه القضية. لقد آمنّا بالإلهة السوداء فوقعنا تحت نفوذها وسُلطانها، ولذلك هي تعذّبنا؛ ولكنكم، معشرَ المسلمين، قد أنكرتم بوجودها أصلاً، فخرجتم من دائرة نفوذها، فلا تقدر على إيذائكم. فقال: نعم ما فهمتَ، يا مهراجا. بالفعل لقد تحررنا من نفوذ هذه الآلهة الباطلة بالإيمان بإله واحد. فكان المهراجا مسرورًا بأنه عرف الحقيقة، أما أستاذي فكان أيضًا فرحانَ لأن التوحيد قد حمانا نحن المسلمين من كثير من السفاسف والمهازل.

---

* هي أحد الآلهة الكثيرة عند الهندوس، وهي أنثى عندهم، وتدعى "كالي ديوي، (أي الإلهة السوداء) و"كالي مان" (أي الأم السوداء). يصنعون لها تمثالاً أسود ويحتفظون به في بيوتهم (المترجم).

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾

شرح الكلمات:

صرّفنا: صرَفه صَرْفًا: ردَّه عن وجهه. صرَّف الكلامَ: اشتقّ بعضَه من بعض. صرّف الله الرياحَ: حوّلها من وجه إلى وجه. صرّف فلانًا في الأمر: قلّبه فيه وفوّضه إليه (الأقرب).

نفورًا: نفَرت الدابّةُ من كذا تنفِر نفورًا: جزِعت وتباعدت. نفَر القومُ نَفَرًا: تفرّقوا. ونفَر القوم عن كذا: أعرضوا وصدّوا. ونفَر القوم من كذا: أَنِفوا وكرهوه (الأقرب).

التفسير: نظرًا إلى معاني (النفور) المبيَّنة أعلاه، ستعني هذه الآية أننا قد بيّنّا في القرآن صنوف الدلائل، ولكن الناس ينفرون منه ويُعرضون عنه بدلا من أن ينتفعوا بهذه البراهين.

يعترض البعض على القرآن الكريم أن فيه تكرارًا (تفسير القرآن لـِ "ويري"). وقد ردّ الله ﷻ عليهم سلفًا فقال ﴿ولقد صرّفنا في هذا القرآن ليذّكّروا﴾.. أي لقد بحثنا في القرآن المسائل بجميع جوانبها المختلفة لكي يفهمها الناس بالنظر إليها من أية زاوية، ولكنهم مع ذلك يُعرضون عنه.

مع العلم أن من معاني "صرَّف": (١) ردُّ الشيء ردًّا جيّدًا، (٢) قلبُ الشيء من جهة إلى أخرى، يقال: صرّف الله الرياحَ.. أي حوّلها من وجه إلى وجه. إذن ستعني هذه الآية؛ أوّلاً: أن الله يردّ على كل المطاعن أيما ردٍّ، وثانيًا: أنه ﷻ يسلط الضوء على كل مسألة من كافة جوانبها. والحق أن القرآن الكريم متّسم بالميزتين كلتيهما، فهو يرد على كل الاعتراضات التي أُثيرت ضده ردًّا دامغًا؛ كما يوضح جميع القضايا الحيوية الضرورية من شتى نواحيها. والكتاب الذي

يتناول كل قضية ببحث مستفيض لا بد له أن يبينها مرة بعد أخرى، ولا أحد من العقلاء يعُدّ هذا البيانَ المُعاد تكرارًا فارغًا، وإنما التكرار أن يُعاد الشيء دونما حاجة. أما إذا أُعيد الشيء من زاوية أخرى ولضرورة جديدة فكيف يمكن أن يُعَدَّ تكرارًا. الواقع أن هؤلاء الطاعنين لا يتدبرون القرآن لفهم مضامينه، بل يسارعون في الطعن فيه بناءً على أمور سطحية.

أما قوله تعالى ﴿وما يزيدهم إلا نفورًا﴾ فيبيّن فيه أن إصرارهم على إنكار القرآن رغم توضيحنا المتكرر للقضايا المختلفة يدلّ على أن الشرك قد أَودَى بعقولهم، وإلا لِم لا يفهمون الحقيقة رغم توضيحنا إياها بشتى الأساليب؟

قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٗ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴿٤٣﴾

شرح الكلمات:

العرش: سريرُ المَلِك؛ العزُّ؛ قِوامُ الأمر؛ ركنُ الشيء. وعرشُ البيت: سقفُه. والعرشُ: الخيمةُ؛ البيتُ الذي يُستظلّ به؛ شبهُ بيت من جريد يُجعَل فوقه الثُمام (الأقرب).

التفسير: لقد ذكر ﷻ هنا على الفور مثالاً للتصريف الذي مر ذكرُه من قبل، حيث تحدَّثَ مرة أخرى عن الشرك، ولكن دون أن يكرر ما قاله من قبل، بل أتى ببرهان آخر وهو: إذا كان الشرك منهجًا سليمًا فلِمَ لم يصبح المشركون من الواصلين بالله ﷻ؟ هذا هو المراد من قوله تعالى ﴿إذًا لابتغَوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾.. أي لو كان الشرك منهجًا صحيحًا لتمكَّنَ أهله من إنشاء صلة مع صاحب العرش، إذ يجب أن يفتح عليهم اتصالُهم ببنات الله وأبنائه أبوابَ التقربِ إليه سبحانه تعالى.

لقد سجّل القرآن الكريم في موضع آخر منه دعوى المشركين بأن غرضهم من عبادة الأصنام هو التقرب إلى الله تعالى، إذ قالوا: ﴿ما نعبُدهم إلا ليقرِّبونا إلى الله زُلْفَى﴾(الزمر: ٤). إذَنْ فالله تعالى يدحض هنا الشركَ بناءً على دعواهم هذه نفسها، فيقول: ما دام هدفهم من ذلك أن يحظَوا بوصال ذي العرش، وما داموا قد أنشئوا الصلات مع المقرّبين لديه في زعمهم، فيجب أن يكونوا محظوظين بقربه، ولكن لا يوجد فيهم أية آثار للتقرب إليه ﷻ.

وقد بين القرآن الكريم علاماتِ المقربين لدى الله تعالى كما يلي:

العلامة الأولى: استجابة الدعاء، قال الله تعالى: ﴿وإذا سَأَلَك عِبادي عني فإني قريبٌ أُجيبُ دَعوةَ الدّاعِ إذا دَعانِ﴾(البقرة: ١٨٧).. أي حين يسألك عبادي عني قُلْ لهم: إني قريب منكم. وعلامة قربي منهم أنني أستجيب دعاء الداعي.

وهذه العلامة تبلغ من الصحة بحيث إن المشرك أيضًا لا يسعه إنكارها. ولكن لا أثر لها عند أهل الشرك، إذ ليس بينهم من يدّعي استجابة دعواته. لم يوجد في الدنيا إلى اليوم شخص واحد ادعى الوصالَ بالله تعالى بوساطة الأصنام، وأنه تعالى يسمع دعواته ويتقبلها، وأن الدنيا قد شهدتْ آياتِ الاستجابة الإلهية لدعواته.

العلامة الثانية: يقول الله ﷻ عن المقربين لديه ﴿لا يسمَعون فيها لَغْوًا ولا تَأْثيمًا* إلا قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾(الواقعة: ٢٦ و٢٧).. أي من علامة مقام القرب الإلهي أنه لا يكون فيه شيء من اللغو والإثم، بل يكون الناس في مأمن من شر الآخرين، وكل شخص فيه يسعى لسلامة غيره، كما ينال السلامَ من الله أيضًا. ولا يمكن لأي مشرك أن ينكر هذا المعيار أيضًا، إذ من الظاهر الجلي أن من يكون مقرَّبًا لدى الله تعالى لا بد أن يحترزَ الأمورَ التي تدخل في حكم اللغو والإثم، ويعيشَ عبدًا لله تعالى، ساعيًا لخير عباد الله الآخرين، متجنبًا الفسادَ.

وهذه العلامة أيضًا لا تتوافر في أي من الوثنيين. خُذوا الشق الأول من هذه العلامة، وهو اجتناب اللغو. متى يتحاشى المشرك اللغوَ؟ كلا بل إنه يأتي المَهازلَ

بسبب شركه، حيث يعظّم ويسجد لشيء موهوم لا علمَ لـــه به، ولا ضررَ يأتي منه؛ ويقف العاقل مدهوشًا مذهولاً برؤية أفعاله هذه. فمثلاً مَن من العقلاء يستسيغ هذه الغوغاء المُثارة في الهند عن قداسة البقر. إن عَبَدَةَ البقر هؤلاء يحرمون ولدَها من لبنها ليستأثروا به، ويأكلون الحبوب والغلال بينما يُطعمون البقر الكلأَ والحشيش، ويقيّدونها في الحظائر، ويسخّرون ذُكورَها في حمل أثقالهم وكذلك في أسفارهم، ويضربونها؛ ومع كل هذا يعتبرونها إلهًا مقدَّسًا! والأغرب أنهم مع ذلك يسخَرون من المسيحيين بأنهم اتخذوا الإنسان الضعيف إلهًا. أما المسيحيون فيضحكون بدورهم على الهندوس بأنهم يعتبرون حيوانًا ضعيفًا إلهًا! ولا يملك الإنسان الموحِّد لدى رؤية هذه المهازل إلا أن يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

والشق الثاني من العلامة الثانية للمقرَّبين أنهم يجتنبون الإثم. والوثني يستحيل عليه اجتنابُ الإثم وهو يشرك. إننا لا نشك في وجود بعض أهل الصلاح بين الوثنيين، ولكن صلاحهم لا يرجع إلى وثنيتهم، وإنما يكون على حسابها؛ ذلك أن فطرتهم تظل صالحة، فلا يقدر الشرك أن يؤصِّل فيها جذورَه. خُذوا مثلاً البقر، فإن عَبَدَةَ البقر يؤذون إلههم هذا بأنواع الأذى. والحق أنهم مضطرون لذلك، لأن الله خلَق البقر من أجل فائدة الإنسان، فلا بد لهم من تسخيرها لصالحهم. والنتيجة أنهم يسخّرونها في أعمالهم من جهة، ومن جهة أخرى ينتابهم شعور مضطرد بالإثم جراء تسخيرهم لها، فتفسُد ضمائرهم.

ثم إن هؤلاء الهندوس الوثنيين يحتفلون بما يُطلقون عليه اسم "دَسَهْرَه"،* ثم بعد الاحتفال ينتابهم تفكير مريب بأن "رام شندر" كان كَهْتريًّا، وأن "راوَن" كان

* احـــتفال هندوســـي بذكرى الانتصار الذي حققه "الراجا رام شندر" – سابعُ الشخصيات المقدسة لـــدى الهندوس، والذي كان ينتمي إلى طبقة "كَهْتَري" ثانية الطبقات الأربع في الديانة الهندوسية – على عدوِّه "الراجا راوَن" الذي كان ينتمي إلى طبقة "بَرَهْمَن" وهي أعلى الطبقات الهندوسية. (المترجم)

بَرَهْمَنًا، وإهانة البرهمن إثم؛ فيقومون بالتوبة في يوم آخر كفّارةً عن هذا الإثم. ونفس الحال للمسيحيين حيث يؤمنون أن المسيح إله من جهة، ومن جهة أخرى يحمّلونه آثامهم. وعقيدة الشرك هذه قد فتحت عليهم أبواب كل معصية، إذ يظنون أن إلههم المسيح قد حمل عنهم مسؤولية ذنوبهم.

والعلامة الثالثة للمقربين لدى الله تعالى أنهم يُعطَون العصمة والحماية من عنده تعالى. وهذه الميزة أيضًا لا تتوفر في المشرك، ولن تتوفر فيه، إذ كيف يمكن أن يتمتع بالحفظ والحماية مَن يخضع ويسجد للأشياء التي سخّرها الله للإنسان.

والعلامة الرابعة للمقربين لدى الله تعالى أنهم يصبحون لله تعالى، فيعاملون عبادَه الآخرين بالحسنى، لكي يزداد الناس سلامًا ووئامًا. وهذه الميزة أيضًا لا يمكن أن يتحلّى بها المشرك، لأن التوحيد هو وحده القادر على توطيد السلام في العالم، بينما لن يؤدي وجود الآلهة المتعددة إلا إلى الفُرقة والفساد. والحق أن الحروب بين الأقوام إنما تنشب بسبب الآلهة القومية، فالهندوسي مثلاً لا يمكن أن يؤمن بالمسيح، والمسيحي لا يمكن أن يعبد البقر؛ ولكن هؤلاء جميعًا يمكن أن يعبدوا إلهًا واحدًا، وبالتالي يمكن ضمان السلام العالمي.

هذا، ومن معاني قوله تعالى ﴿إذًا لابتغَوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ أن الرسول ﷺ يقول لهم: لو كان هناك آلهةٌ أخرى في الواقع لاتصلتم بهم يا أعدائي، ليدلّوكم على ما يجعلكم قادرين على إضراري وإبادتي، ويعرّفوكم إلى صاحب العرش لِيَدُلّكم على خطةٍ تنجحون بها في مقاومتي. فازدهاري المضطرد رغم ضعفي، وانقراضكم المستمر رغم عبادتكم للأصنام واستعانتكم بها، يدلّ على أن عقيدة الشرك باطلةٌ، وأن لا جدوى منها.

ولقد اهتدى بهذا البرهان كثير من المشركين الكبار. فقد ورد في الحديث الشريف أن النبي ﷺ لما جاءته النساء يبايعنه يوم فتح مكة قال لهن: لا تُشرِكْنَ بالله. وكانت بينهن هند زوجةُ أبي سفيان التي لم تملك نفسها وقالت: يا رسول

الله، كيف نشرك بالله بعد هذا كله؟ لو كانت أصنامنا تملك شيئًا لنصرتْنا لما انتصرتَ علينا رغم كونك وحيدًا ضعيف الحيلة!*

سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٤﴾

شرح الكلمات:

تعالى: ارتفعَ (الأقرب). ورَاجِعْ أيضًا شرح الكلمات للآية رقم ٥ من هذه السورة.

التفسير: إن كلمة ﴿عُلُوًّا﴾ التي هي من باب (نصَر ينصُر) هي توكيد لفعل ﴿تعالَى﴾ الذي هو من باب التفاعل. وفي القرآن أمثلة أخرى لمثل هذا الاستخدام كقوله تعالى ﴿وأنبتَها نباتًا حسنًا﴾(آل عمران: ٣٨). وقد قال المفسرون إن هذا الأسلوب يزيد التوكيد شدةً حيث يقدَّر فعلٌ ومصدر إضافيان (روح المعاني)؛ والتقدير هنا: تعالَى الله تعاليًا وعلا عُلُوًّا عما يقولون؛ ومفهوم الجملة أنه مما يتنافى تمامًا مع عظمة الله أن يهب لأحد قُرْبَه بوساطة أحد، إذ ليس من الحكمة أن يخلق الله الإنسانَ بيده، ثم يضع العراقيل في طريق معرفته به ﷻ.

قد يقول قائل: إذا كان الله تعالى لا يهب أحدًا قربَه بوساطة أحد، فلماذا يبعث الأنبياء إذنْ، ولماذا فرض علينا الإيمان بهم؟ والجواب: أن النبي إنما يُبعث لإزالة العوائق الموجودة في سبيل التقرب إلى الله تعالى، ولتوجيه أنظار الناس إليه ﷻ. فلا يقف النبي سدًّا عائقًا بين الله وبين العبد، بل رغم وجود النبي تبقى لكل عبد علاقةٌ مباشرة مع الله تعالى.

---

* هناك رواية تنسب هذا المعنى إلى زوج هند أبي سفيان حيث ورد أن الزبير بن العوّام قال لأبي سفيان يوم الفتح حين كُسر صنمُ هُبَل: "يا أبا سفيان، قد كُسر هُبَل! أما إنك قد كنتَ منه يومَ أُحُد في غرور، حين تزعم أنه قد أنعمَ! فقال أبو سفيان: دَعْ هذا عنك يا ابنَ العوّام، فقد أَرَى لو كان مع إلهِ محمدٍ غيرُه لكان غيرَ ما كان." (كتاب المغازي للواقدي: شأن غزوة الفتح ج ٢ ص ٨٣٢) (المترجم)

تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

شرح الكلمات:

لا تَفقَهون: فَقَهَ الشيءَ يفقَه فِقْهًا: فَهِمَه. وفَقِهَ الرجلُ يفقَه فَقَهًا: علِم وكان فقيهًا (الأقرب).

حليمًا: حلُم يحلُم حِلْمًا: صفَح وستَر فهو حليم (الأقرب).

التفسير: لقد بيّن الله ﷻ هنا أن النظرة الشمولية في الكون تدلّ على وحدانية الله تعالى، كما أن النظر في كل شيء منفردًا يوصلنا إلى النتيجة نفسها؛ علمًا أن جملة ﴿تسبّح له السماواتُ السبعُ والأرضُ ومَن فيهن﴾ تتحدث عن الدلالة الشمولية على التوحيد، وأما جملة ﴿وإنْ مِن شيء إلا يسبّح بحمده﴾ فتتحدث عن الدلالة الفردية لكل شيء على التوحيد، إذ لو كانت الجملة الأولى تشمل الدلالة الفردية أيضا لما كان هناك داعٍ للجملة الثانية.

أما الدلالة الشمولية فبيانها أن النظر في شتى الأشياء الموجودة في الكون يدل على وجود صلة متينة بينها. فبالرغم من ابتعاد هذه الأشياء بعضها عن بعض بملايين الأميال، إلا أنها متصلة فيما بينها بنظام شديد الإحكام؛ وارتباط هذه الأشياء بانسجام تام تحت نظام محكم واحد يدل جليًّا أنه لا يوجد في الكون إلا قانون واحد وإلا لاختلّ نظامه. وبما أنه لا يوجد في الكون إلا قانون واحد فكيف يمكن أن يوجد فيه مقنِّنٌ آخر.

كما أن كل شيء في الكون يسبّح لله تعالى تسبيحًا فرديًّا أيضًا، إذ تتجلى في كل شيء صفاتُ البارئ ﷻ ككونه ستّارًا وغفّارًا وخالقًا ومالكًا وما إلى

ذلك.. بمعنى أنك تجد كل شيء يعمل وفق هذه الصفات الإلهية. لو فحَصتم أية ذرة في الكون لوجدتم فيها بصمة هذه الصفات الإلهية كلها. فما دام كل شيء يُجلّي صفات الإله الواحد فكيف يمكن أن يُنسَب إلى إله آخر؟

أما قوله تعالى ﴿ولكنْ لا تفقَهون تسبيحَهم﴾ فقد قال البعض أن المراد منه أن لكل شيء لغةً مستقلة يسبّح بها، ولكنا لا نفهم لغته. (تفسير البغوي)

أقول: لو كان لكل شيء لغة يسبح بها ولكن لا نفهمها فكيف يكون هذا الأمر دليلاً لنا؟ إنما الدليل ما نستطيع فهمه وإدراكه. إذن فليس المراد من هذه الجملة أننا لا نفهم لغة هذه الأشياء، إنما المفهوم الصحيح هو أننا لا ندرك أن كل هذه الأشياء هي الأخرى تقوم بتسبيح الله تعالى.

ونبّه الله تعالى بقوله ﴿إنه كان حليمًا غفورًا﴾ إلى أنه ﷻ يعاملكم بحلم، ولكنكم لا تنتفعون من حلمه، وإنما تزدادون تمردًّا. هلا فكّرتم أن عدم انتفاعكم من هذا النظام الكوني والبراهينِ الدالة عليه، وعدمَ نزول العقاب عليكم رغم استمراركم في الشر والتمرد، إنما يدل على أن الله حليم فلا يؤاخذكم فورًا؟ فالأولى بكم أن تتحلّوا بالنبل وتتصرفوا بما يتلاءم مع هذا الحلم الرباني.

وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٦﴾

شرح الكلمات:

حجابًا: الحجاب: مصدرُ حجَب يحجُب. والحجاب: السترُ؛ وكلُّ ما احتُجبَ به (الأقرب).

التفسير: لهذه الآية مفهومان؛ أولهما: أنك حين تقرأ القرآن الكريم نجعل بينك وبين الذين يكفرون بالآخرة حجابًا خفيًّا لا يستطيعون رؤيته. وقد وصف الحجاب بكونه ﴿مستورًا﴾ كيلا يظن أحد من الجاهلين أنه حجاب مادي.

وقد قال البعض أن الله تعالى كان يلقي على النبي ﷺ حجابًا يختفي به عن أعين الناس، وقد ساقوا بهذا الصدد قصة عن زوجة أبي لهب. قالوا: لما نـــزلت سورة المسد وسمعت هذه المرأةُ قولَه تعالى ﴿في جِيدها حبلٌ مِن مَسَدٍ﴾ استشاطت غضبًا، وأسرعت إلى النبي ﷺ تريد إيذاءه. فدعا ربَّه ليحميه من شرها، فجعل الله بنيها وبين النبي حجابًا، فلم تستطع رؤيتَه ﷺ ولا إيذاءَه (الدر المنثور، والرازي).

هذه خرافة من الخرافات، إذ كيف يمكن للرسول الذي لم يخش الدنيا كلها أن يخاف هذه المرأةَ الضعيفة حتى يضطر اللهُ تعالى لإخفائه في الحجاب!؟ هذا غير معقول، ويستحيل أن يقبله أي من العقلاء. إن الذين يذكرون هذه الرواية لا يفكّرون أن الله تعالى قد وصف هذا الحجاب بكونه مستورًا.. أي خفيًّا عن الأعين، ولكنهم يقولون أنه كان مرئيًّا، وكان النبي ﷺ مختفيًا وراءه!

والمفهوم الثاني لهذه الآية هو أن ذلك الحجاب أيضًا مستور وراء حجاب آخر.. بمعنى ليس بينك وبين الكفار حجاب واحد، بل حُجب كثيرة مِن حميّة قومية وأموال طائلة وأخلاق ذميمة وما إلى ذلك.. أي تارةً يمنعهم من الإيمان تفكيرُهم أنهم لو آمنوا لاضطروا لترك عشيرتهم وقومهم، وتارة أخرى يحول دون إيمانهم خوفُهم على أموالهم؛ وأحيانًا يفكرون أن الإيمان سيتطلب منهم ترك الكثير من رذائل الأخلاق والعادات التي قد تعوَّدوا عليها. فالله تعالى قد نبه نبيه ﷺ هنا أنهم لن يصدّقوك ما لم يزيلوا هذه الحجب، ولكن المشكلة أن هذه الحجب خافية عليهم، فلا يستطيعون رؤيتها؛ ويظنون أن العيب في القرآن، إذ يقولون: لو كان خيرًا لتأثرت به قلوبنا على الفور. ولكن الحق أن الصدأ قد رانَ على قلوبهم، فيرون القبيح جميلاً، والجميل قبيحًا، فأصبح إيمانهم بعيدَ المنال.

وهذا المفهوم الثاني تؤكده أيضًا الآيةُ التالية: ﴿وجعلنا على قلوبهم أَكِنّةً﴾.. أي ليست قلوبهم في غطاء واحد، بل هي في أغطية كثيرة.

وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾

شرح الكلمات:

أَكنَّة: جمعُ كِنٍّ، وهو: وقاءُ كلّ شيء وسترُه (المنجد).

وَقْرًا: وقَرتْ أُذنُه تَقرُ وَقْرًا: ثقُلتْ، أو ذهَب سمعُه كلُّه وصَمَّتْ (الأقرب).

ولَّوا: ولّى هاربًا: أدبرَ. ولّى الشيءَ وعن الشيءِ: أعرضَ ونَأَى (الأقرب).

التفسير: اعلَمْ أن كلمة ﴿أن يفقَهوه﴾ متعلِّق بمفعولٍ له محذوف، والمراد أننا قد جعلنا على قلوبهم الأكنّةَ كراهةَ أن يدخل في الإسلام مثلُ هؤلاء الأشرار الذين قد غطّوا قلوبهم بشتى الظلمات، فيتسبَّبوا في تشويه سمعته.

وقد يثار هنا اعتراض وهو: بما أن الله هو الذي جعل على قلوبهم الأغطيةَ فأنى لهم أن يدركوا الحقيقة، وكيف يجوز لومُهم إذنْ؟

ولقد ردّ الله ﷻ على ذلك ردًّا مبدئيًّا في مكان آخر فقال ﴿وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين﴾(البقرة: ٢٧).. أي أن هذه الحجب تتولد من عند أنفسهم، وليس من الخارج. وقد صرّح الله ﷻ بذلك في موضع آخر من القرآن الكريم فقال ﴿أم على قلوبٍ أقفالُها﴾(محمد: ٢٥).. أي على قلوبهم أقفال تولدت من عند أنفسهم هم. فالإنسان يختار هذه الحجبَ والأقفال بحريته، أما الله تعالى فيضع على قلب الإنسان ما يختاره بنفسه. ذلك أن الإنسان ما لم يتطهر قلبه لن ينفعه الدخول في الجماعة الإلهية شيئًا، وإنما سيلطّخ سمعتَها.

أما قوله تعالى ﴿وإذا ذكرتَ ربَّك في القرآن وحدَه ولَّوا على أدبارهم نفورًا﴾ فاعلم أن كلمة ﴿وحده﴾ تدل على أن المشركين يؤمنون بالله تعالى، ولكنهم يتضايقون من التوحيد. وهذا الضيق أيضًا أحد هذه الحجب المذكورة أعلاه.

نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٤٨﴾

شرح الكلمات:

يستمعون: استمعَ له وإليه: أَصغَى (الأقرب).

نَجْوَى: النجوى: السرُّ؛ المُسارُّون، وهو وصفٌ بالمصدر يستوي فيه المفرد والجمع (الأقرب).

مسحورًا: المخدوع؛ المصروف عن الأمر؛ المسلوب اللُبِّ؛ المسلول.* فكأنهم قالوا لهم: إنكم لا تتبعون إلا رجلاً قد انخدع؛ أو صُرف عن الحق؛ أو سُلب عقله؛ أو أصيب بمرض لا علاج له. ذلك أن صحة أنبياء الله تعالى لا تكون جيدةً بالعموم لحزنهم على الحالة المتردية لأقوامهم، فيقول المعارضون إنه مريض ضعيف، وسيموت بعد برهة من الزمن؛ إنْ هو إلا "سحابة صيفٍ عن قليلٍ تقشَّعُ".

التفسير: اعلَمْ أن الباء في قوله تعالى ﴿يستمعون به﴾ جاءت بمعنى اللام، والمراد أننا نعلم جيدًا الغرض الذي من أجله يستمع هؤلاء إلى أقوالك. إنما يستمعون

* ورد في "أقرب الموارد": سحَره: عمِل لـــه السحرَ وخدَعه؛ سحَره عن الأمر: صرَفه؛ وسحَره بكلامه وألحاظه: استماله وسلَب لُبَّه.

وورد في "لســـان العرب": سحَره، فهو مسحور وسحير: أصابَ سَحْرَه. ورجلٌ سحرٌ وسحير: انقطع سَحْرُه، وهو رِئَتُه، فإذا أصابه منه السِّلُّ وذهَب لحمُه فهو سحير وسَحِرٌ . (المترجم)

إليك لكي يرفضوك ويتهموك فحسب. وكأن هذه الجملة جاءت شرحًا للوقر المذكور في الآية الماضية.

وقد تكون الباء في ﴿يستمعون به﴾ للمصاحبة، والمعنى أننا نعلم حالة قلوبهم وقتَ استماعهم لك. وما هي هذه الحالة؟ هي تفكيرهم في الاستهزاء بك ومعارضتك.

تتحدث هذه الآية عن المزيد من الحجب التي غطّت قلوبَ المنكرين. فقال الله تعالى: إن أول الحجب الحائلة دون إيمانهم هو الشرك. وثانيها أنهم لا يستمعون إلى محمد رسول الله بتأنٍّ وتدبُّرٍ إطلاقًا، وإنما يَسمعونه بهدف السخرية والاتهام فحسب؛ فكيف يمكن إذن، والحال هذه، أن يدركوا الحقيقة. وثالثها أنهم يستهينون بمحمد، ظانين أن أمره لن يدوم، فلماذا نؤمن به ونرى الخزي والهوان؟ ورابعها أن بعض الحمقى منهم يظنون أن محمدًا قد سُلب عقلُه، فلا داعيَ للإصغاء إليه. وخامسها أنهم يحسبونه مخدوعًا، فلا يرون الحاجة للتدبر في أمره، فرِحين في أنفسهم بأنهم مصيبون كبدَ الحقيقة.

كما يتبين من هذه الآية أن الكفار لما فشلوا في صد تيار انتشار الإسلام بالظلم والعدوان على المسلمين لجأوا إلى حيل أخرى، حيث بدؤوا يهمِسون في آذان القوم سرًّا وبكل رفق ما يصدّونهم به عن الإسلام.

ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٤٩﴾

التفسير: باستخدام كلمة ﴿الأمثال﴾ قد أوضح الله تعالى أن جميع المعاني لكلمة ﴿مسحورًا﴾ تنطبق في الآية السالفة، وإلا لوجب استعمال كلمة (مَثل).

واتضح من ذلك أيضًا أن القرآن إذ يستخدم كلمة ذات مدلولات عديدة، فكل تلك المدلولات تنطبق هناك في آن واحد، إلا ما كان منها خلافًا للسياق.

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾

شرح الكلمات:

عظامًا: العظام جمعُ العظْم (الأقرب).

رُفاتًا: الرُفات: الحُطامُ؛ كلُّ ما تَكسَّرَ وبَلِيَ (الأقرب).

التفسير: لقد أنبأت الآيات السالفة عن رقي المؤمنين ووقوع الكافرين في الجحيم، وتتحدث هذه الآية عن شبهة قد تدور في خَلَد الكفار لدى سماع هذا الإعلان، وهي: كيف يمكن أن نُخلَق من جديد وقد صارت عظامنا رفاتًا وذرات.

قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾

شرح الكلمات:

فسيُنغضون: أنغضَ فلان رأسَه: حرّكه كالمتعجب من الشيء (الأقرب).

التفسير: يجيب الله تعالى هنا على اعتراض الكفار الذي مرّ ذكره آنفًا، فيقول: لن تنجوا من عذاب الله ﷻ مهما تغيرتم، حتى ولو صرتم حجرًا أو حديدًا أو أي شيء أصلب من ذلك.

وقد يكون المعنى أنه مهما تحجّرتْ قلوبكم وتصلّبت فلن يحول هذا دون رقي رسولنا وازدهاره، بل لا بد أن يدخل كثير منكم في الإسلام، وأن يُحدث الله في قلوبهم انقلابًا عظيمًا.

أستنتج من هذه الآية أنه من الممكن أن يحدث في جسم الإنسان المدفون تحت الأرض لمدة طويلة تغيُّرٌ يحوّله إلى مادة جديدة. ذلك أنه فيما يخص النباتات فقد أثبتت البحوث العلمية أن كثيرًا من الشجر المدفونة تحت الأرض منذ أزمنة سحيقة قد صارت فحمًا، وبعضها تحولت إلى ألماس (الموسوعة البريطانية الجديدة كلمة Coal). إذن فلا غرابة في أن يتحول الجسم الإنساني المدفون تحت الأرض لمدة طويلة إلى الحجر. لا شك أننا لم نعثر بعد في الآثار القديمة على ما يؤكد ذلك، ولكنه ليس بأمر مستحيل عقليًّا. لذلك أرى أن هذه الجملة تنصّ على أنه لا مناص للإنسان من البعث بعد الموت ولو مرّت على عصر الحياة الإنسانية فترةٌ طويلة ممتدة إلى ملايين السنين تتبدل فيها الأجسامُ الإنسانية المدفونة تحت الأرض وتتغير كليّةً.

وأما قولهم ﴿مَن يُعيدنا﴾ فاعلَمْ أنهم لم يكونوا جادّين في هذا السؤال، وإنما قالوا هذا على سبيل السخرية. وكأنهم يقولون: أَرُونا مَن يزعم أنه سيبعثنا من جديد؟ وهذا التعبير يماثل قولنا في لغتنا: أَرِني وجهَ مَن يدّعي هذا. فالاستفهام هنا إنكاريٌّ؟

وقوله تعالى ﴿فسيُنغِضون إليك رؤوسَهم﴾ يعني أنهم سينظرون إليك من باب السخرية محرّكين رؤوسهم وقائلين: حسنًا، فأنت الذي تعتقد بذلك؟

وأما قوله تعالى ﴿عسى أن يكون قريبًا﴾ فالمراد منه أن البعث الذي نعنيه هنا ليس ذلك الذي تعترضون عليه، وإنما نعني البعثَ الذي سيتم بواسطة المسلمين في هذه الدنيا، واعلموا أنه موشك. وبالفعل فقد وقع البعث الذي نبّأت به هذه السورة حين أسلم أهل الجزيرة العربية بفترة وجيزة.

يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

التفسير: لقد دلّت هذه الآية أيضًا على أن البعث المذكور هنا سيتم في هذه الدنيا، حيث قال الله تعالى: إن هذا البعث سيقع في اليوم الذي يناديكم اللهُ أو رسولُه فيه، عندها لن تبقوا صامتين تجاه ندائه صمتَ الأموات، بل سيُسرع معظمُكم إلى تلبية ندائه، وستفاجَئون بسرعة غلبة الإسلام حتى تقولوا: إنا كنا خاطئين إذ استبعدنا هذه الغلبة، مع أنها كانت جدَّ قريبة.

ولعل الآية تعني أيضًا أن الناس عندما يؤمنون سيندمون على سنوات عمرهم التي أفنَوها في الكفر، وسيرون أنهم قد وُلدوا الآن ولادةً حقيقية. كما أن المؤمنين أيضًا سينسَون أيام المحن والشدائد، ويرونها قد انقضت في لمح البصر. فالآية إذًا لا تتحدث عن طول الزمن أو قصره، وإنما تتحدث عن المشاعر التي ستنتابهم في ذلك الوقت. ورد في الحديث الشريف: "ليس على أهلِ "لا إله إلا الله" وحشةٌ في قبورهم ولا في مَنشَرهم، وكأني بأهل "لا إله إلا الله" ينفُضون الترابَ عن رؤوسهم ويقولون: الحمد لله الذي أذهبَ عنا الحَزَنَ (روح المعاني، تحت هذه الآية، والترمذي، والمعجم الأوسط للطبراني الجزء العاشر رقم الحديث ٩٤٧٤). وكأنهم سوف ينسون كل همّ وحزن بمجرد أن تتيسّر لهم الراحة والرقي، معتبرين فترة المحن والمعاناة قصيرةً جدًّا.

وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿٥٣﴾

شرح الكلمات:

ينـــزِغ: نـــزَغه نَـــزْغًا: طعَن فيه واغتابَه وذكَره بقبيح. ونـــزَغ بين القوم: أغرَى وأفسَدَ وحمَل بعضَهم على بعض، ونـــزَغ الشيطانُ بينهم (الأقرب).

التفسير: ما أكثَرَ المتعةَ التي يجدها المرء في قراءة القرآن الكريم. فرغم أن ترتيبه الحالي يختلف عن ترتيبه النـــزولي - حيث وُضعتْ بعضُ سُوَرِه قَبل السُور التي كانت أسبقَ منها نـــزولاً - فإنك تجد في مواضيعه انسجامًا تامًّا بحيث يخيَّل إليك وكأن سورتين من سوره بابان من كتاب تمَّ تأليفُه في وقت واحد. فمثلا قال الله تعالى في السورة الماضية.. النحل: ﴿ادْعُ إلى سبيل ربِّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجَادِلْهم بالتي هي أحسَنُ﴾(الآية: ١٢٦).. وقد تناولتْ سورةُ الإسراء الآن هذه المواضيع بنفس الترتيب؛ فبعد بيان محاسن القرآن قال الله تعالى ﴿ذلك مما أَوحَى إليك ربُّك من الحكمة﴾(الآية:٤٠)، مشيرًا إلى ﴿الحكمة﴾؛ ثم قال ﴿ولا تجعَلْ مع الله إلهًا آخَرَ..إلخ﴾(الآية٤٠ وما بعدها)، مشيرًا إلى ﴿الموعظة الحسنة﴾؛ ثم قال ﴿وقُلْ لعبادي يقولوا التي هي أحسنُ﴾(الآية:٥٤) مشيرًا إلى قوله ﴿وجادِلْهم بالتي هي أحسنُ﴾.

بعد رؤية هذا الترتيب المحكَم كيف يمكن لأحد أن يزعم بأن لا ربطَ ولا ترتيبَ في القرآن الكريم.

أما قوله تعالى: ﴿إن الشيطان يَنـــزَغ بينهم﴾ فلفت به أنظارنا إلى ضرورة القول الحسن حتى للأصدقاء، وأن علينا أخذ الحيطة والحذر أكثر بهذا الشأن خاصة حين يسعى العدو لبذر النفور والكراهية بين القوم، فنتحدثَ بأسلوب يليّن جانبَ الناس تُجاهنا.

علمًا أنه قد يراد بالشيطان هنا الشخص الفاسق، كما يمكن أن يراد به الكائن الذي قد خُصَّ بهذا الاسم، فهو الذي يوسوس في صدور الناس.

كما تتضمن هذه الآية وصية ربانية للمسلمين أنهم إذا كانوا فعلاً يريدون أن تقترب أيامُ البعث الإسلامي، أي أيام ازدهاره الموعود في قوله تعالى ﴿يوم يدعوكم﴾ فعليهم أي يسلكوا سلوكًا يؤدي إلى إسلام القوم بسرعة.

لقد تبين من هذا أيضًا أن قوله تعالى من قبل ﴿فتستجيبون له﴾ كان يعني دخول القوم في الإسلام.

رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٥﴾

التفسير: يقول الله تعالى إننا نحن أعلم بالإنسان في حالتَيه: حالةِ خيره وحالةِ شره، ولا أحد سوانا يعلم ما في قلوب البشر، ولذلك احتفظنا بحق الجزاء في قبضتنا، ولم نضعه في يد أحد سوانا، حتى ولا في يد محمد رسول الله. فبقدر ما تتغير حالتكم تتغير معاملتنا لكم.

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٦﴾

التفسير: لقد نبّه الله ﷻ من قبل أنه أعلمُ بحالة أقوام الأنبياء، أما الآن فيقول: نحن أعلم بحال الأنبياء أيضًا، سواء كانوا في السماوات.. أي ممن قد أتى عليهم الفناء، أو الذين هم في الأرض.. أي من الأحياء. وكأنه تعالى يعلن هنا أنه أدرَى بحال محمد رسول الله وكذلك بحال الأنبياء السابقين له، وأنه أدرى بحاجات كل

عصر ليبعث نبيّه بحسبها، ومن أجل ذلك فضّل بعض النبيين على بعض، وبعث كل نبي بحسب حاجات زمنه.

وقد ذكر الله ﷻ اسم داودَ هنا من بين الأنبياء – عليهم السلام – لغرض هام. ذلك أنه ﷻ سبق أن أخبر – لدى الحديث عن اليهود – عن عذابين حلا بهم؛ أحدهما بعد داود عليه السلام حين كثرت الأموال لدى اليهود، وانغمسوا في الملذات، وثانيهما بعد المسيح عليه السلام لكفرهم به. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أخبرنا الله تعالى في القرآن أن نبينا الكريم مثيلٌ لموسى – عليهما السلام – حيث قال الله ﴿إنا أرسَلْنا إليكم رسولاً شاهِدًا عليكم كما أرسَلْنا إلى فرعونَ رسولا﴾(المزّمِّل: ١٦)، كما سجّلت التوراة من قبل نبأً على لسان موسى عن مجيء مثيل له (تثنية ١٨: ١٨)، ثم نجد في سورة الفاتحة نبأً على لسان محمد رسول الله ﷺ بكون أمته مثيلةً للأمة الإسرائيلية؛ وبسبب هذه المماثلة والمشابهة ذكر الله لدى نصح المسلمين اسمَ داود عليه السلام على وجه الخصوص، وكأنه تعالى يحذّرهم قائلا: أيها المسلمون، لا تنسَوا، إبّانَ رقيِّكم وازدهاركم، ما حصل باليهود زمنَ داود حيث أضر بهم الرقيُّ المادي ضررًا فادحًا بدلاً من أن ينفعهم، إذ أصبحوا غافلين عن الدين. فلا تفعلوا مثلهم، بل اقضوا تلك الأيام في تقوى الله وخشيته ﷻ.

وبالرغم من هذا الإنذار الإلهي فقد تطرَّق الفساد إلى المسلمين بعد النبي الكريم ﷺ بفترة تقارب نفسَ المدة التي فسد فيها بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام. لا جرم أنه لم يُبعَث في المسلمين عند تسرب الفساد فيهم نبي كداود، ولكن مما لا شك فيه أنه كان فيهم عندئذ ملوك صالحون قدّموا نموذجًا مثاليًّا للورع والتقوى كما فعل داود وسليمان عليهما السلام. ولكن المسلمين كانوا حينها سكارى بنشوة المال، غافلين عن خدمة الإسلام؛ فكانت النتيجة أن دُمِّرت بغداد بيد هولاكو خان بفترة تقارب الفترةَ التي دُمِّرت فيها أورشليم بعد موسى، وهكذا انمحتْ شوكة الإسلام، و لم تتوطد بالقوة نفسها مرة أخرى.

قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلاً ﴿٥٧﴾

شرح الكلمات:

زعمتم: زعَم الرجلُ يزعُم زَعْمًا: قال قولاً حقًّا، وكذا باطلاً وكذبًا، ضدٌّ، وأكثرُ ما يقال في ما يُشَكّ فيه أو يُعتقَد كذبُه (الأقرب).

فلا يملكون: مَلَكَه: احتواه قادرًا على الاستبداد به. ملَك على القوم: استولى عليهم. ملَك على فلان أمرَه: استولى عليه. وملَك الخَشْفُ (أي ولدُ الظبي) أُمَّه: قَوِيَ وقدَر أن يتبعها (الأقرب).

كشف: كشَف الشيءَ: أظهرَه ورفَع عنه ما يواريه ويغطّيه. كشَف الله غمَّه: أزاله (الأقرب).

الضُّرّ: ضدُّ النفع؛ سوءُ الحال والشدة. وفي الكليات: الضَّرُّ بالفتح شائع في كل ضرر، وبالضم خاص بما في النفس كمرض وهُزال (الأقرب).

تحويلاً: حوّله: نقَله من موضع إلى آخر. حوَّل الشيءَ: قلَبه وأزاله. وحوَّل هو: انتقل، لازمٌ متعدٍّ (الأقرب).

التفسير: الموضوع الذي يتناوله القرآن الكريم في الآيات السابقة هو أن الكفار حين يسمعون ذكرَ بعث الإسلام، أي غلبته، يظنون خطأً أن المراد منه بعث الأجساد بعد الموت، فيشرعون في الاعتراض على ذلك. ومع أنه لا سبيل للاعتراض ولو كان المراد من البعث هو ما ظنوه، ولكن الحق أنه تعالى لا يعني هنا بعث الأجساد من القبور، بل بعثًا روحانيًّا في هذه الدنيا، حيث يعلن تعالى أنه سوف ينادي عبادَه في الموعد المناسب، فيتمزق كلُّ فخّ نسجه أئمة الكفر بمكائدهم لاصطياد الناس، ويفرّ منهم صيدُهم ليلتحق بمحمد رسول الله ﷺ. ثم نصح ﷻ المسلمين بأخذ الحيطة زمنَ الازدهار. واستأنف في هذه الآية الموضوعَ

نفسه ثانية فقال للكفار: يمكنكم أن تعرفوا كذبَ دينكم وحقيقةَ الشرك على ضوء ما أنبأنا به من ازدهار المسلمين وهلاككم. فها نحن نتحداكم أن العذاب نازل بكم، فادعوا آلهتَكم لتروا هل تسمَعْ ابتهالَكم، وهل هي قادرة على تأجيلِ عذابنا لبعض الوقت، بَلْهَ أن تدفعه عنكم نهائيًّا.

وبما أن الدمار القادم كان سيحل بالمسلمين جراء الشرك، فتناول القرآن موضوع الشرك هنا بالتفصيل. والحق أن مرض الشرك كان متفشيًا في المسلمين حين دمِّرت بغداد. ذلك أنهم أثناء الفتوحات الإسلامية تزَّوجوا بالنساء الإيرانيات والتركيات ذوات الحسن والجمال، وكُنَّ مشركات متعصبات، فظهر أثر الشرك في أولادهن في نهاية المطاف. وكان ابن المقفع وعبد الله بن صباح من تلك الحقبة نفسها.

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

شرح الكلمات:

الوسيلة: وسَل إلى الله بالعمل يسِل وسيلةً: رغِب وتَقرَّبَ. ووَسَّلَ إلى الله بوسيلة وتَوسَّلَ. عمِل عملاً تقرَّب به إليه تعالى. وتوسّلت إلى فلان بكذا: تقرَّب إليه بحرمة آصرةٍ تعطِفه عليه. الوسيلة: ما يُتقرَّب به إلى الغير (الأقرب).

محذورًا: ما يُحترَز منه (الأقرب).

التفسير: اعلم أن ﴿أولئك﴾ هنا إشارةٌ إلى النبيين، والمراد من ﴿يَدْعون﴾ أن الأنبياء يدعون الناس إلى الله تعالى، أو أنهم يدعون الله ﷻ في تضرُّع وخشوع؛ وأما ﴿يبتغون إلى ربهم الوسيلةَ﴾ فهو خبرٌ لـِ ﴿أولئك﴾؛ ومفهوم الجملة: أن

أولئك النبيين – الذين صفتهم التبليغ أو الدعاء، والذين بلغوا تلك الدرجة من الصلاح وحب الله تعالى– لا يبتغون إلا قربَ ربهم، ولا يتخذون للتقرب إليه تعالى أيَّ إله آخر.

أما جملةُ ﴿أيُّهم أقربُ﴾ فيرى الزمخشري – وقد أيّد رأيَه جمهور المفسرين – أن ﴿أيّ﴾ موصولة، بمعنى: مَن هم أقربُ منهم، وهذه الجملة بدلٌ من ضمير الفاعل في ﴿يبتغون﴾، والمراد: أن هؤلاء الساعين للحصول على القرب الإلهي هم الأقرب إلى الله تعالى. وفي ذلك تنبيهٌ إلى أنه ما دام أولئك الذين هم أقرب الناس إلى الله تعالى يسعون للمزيد من قربه فكم بالحري أن يسعى لذلك مَنْ لم يحظَ بقربه ﷻ أصلاً.

فمجمل القول إن القرب الإلهي ليس مما يُحرَز بعبادة الآخرين. فما دام أعظم الأنبياء وأكثرهم تقربًا هو الآخر لا يبرح يبتغي قرب الله ويريد المزيد من قربه تعالى؛ فأنّى له أن يكون زعيمًا وضامنًا لكم. وحيث إن كبار الأنبياء العظام ما زالوا يبتغون المزيد من قربه ﷻ، فكم بالحَرَى أن تسعوا أيضًا لذلك.

ويمكن تفسير هذه الآية بمفهوم آخر بأن تكون ﴿أولئك﴾ إشارةً إلى الذين اتُّخذوا آلهةً، ويكون ضمير الفاعل في ﴿يَدْعون﴾ عائدًا إلى المشركين، وأن تكون ﴿أَيُّ﴾ استفهاميةً، عاملُها فعلٌ أو مصدر محذوف، أيْ: يحرصون أيُّهم أقرب إلى الله، أو بغيتُهم أيهم أقرب إليه ﷻ؟ والمراد: أن أولئك الذين يدعوهم المشركون آلهةً إنما يبتغون قربَ الله تعالى، ويرون أيهم يكون أقرب إلى الله تعالى؟

وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

شرح الكلمات:

مسطورًا: اسمُ مفعول مِن سَطَرَ الكاتبُ: كتَب (الأقرب).

التفسير: لقد تحدى الله ﷻ المشركين من قبل بأن يَدْعوا شركاءَهم ليروا هل يدفعون عنهم العذاب أو يتحملون نصيبًا منه نيابة عنهم، أما الآن فيضرب لذلك مثلاً ويقول: سيأتي على الناس زمان تتغلب فيه الأممُ المشركة بحيث يكاد ينمحي أثر التوحيد من على وجه الأرض. وحين تصل غلبة الشرك هذه ذروتها وتغطي العالم كله سنُنـــزل العذاب على الدنيا كلها لنقضي على هذا الشرك العالمي، وعندها سيتجلى للدنيا صدقُ ما نعلنه. سيحيط بالدنيا كلها عذاب عالمي كما أنبأنا، وسيستغيث الناسُ آلهتَهم الباطلة، ولكن بدون جدوى.

وهذا النبأ سيُذكَر في سورة الكهف مفصلاً.

كما حذّر الله تعالى هنا المسلمين أيضًا من عذاب ثانٍ قد يهدّدهم لوجود المشابهة التامة بين الأمة المحمدية والأمة الموسوية.

وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴿٥٩﴾

شرح الكلمات:

فظلموا بها: الظلمُ: التصرفُ في ملكِ الغير ومجاوزةُ الحدّ؛ وضعُ الشيء في غير موضعه. ظلَم البعيرَ ظلمًا: إذا نحَره من غير داء (التاج).

التفسير: يقول الله تعالى هنا: يجب ألا يظنَّنَّ أهلُ أي زمن أن ظهور المعجزات السماوية قد انقطع الآن. وهذا النصح موجَّهٌ إلى المسلمين خاصة، إذ كان هناك خطر أن يتغافلوا عن الله تعالى، فيُحرَموا من رؤية آياته المتجددة، فيظنوا أن الآيات لا يمكن أن تظهر الآن. فنبّههم الله تعالى ألا تنتابهم مثل هذه الظنون، لأنه تعالى يُري آياتِه دائمًا، ليتجدد الإيمان في قلوب العباد.

وقد دلّل الله ﷻ على ظهور آياته دومًا بما يلي:

١- غايةُ ما يمكن أن يُقال في تأييد انقطاع آيات الله هو: متى استفاد الأولون من هذه الآيات حتى ينتفع بها الناس الآن؟ والجواب أنه لو كانت هذه الحجة مقبولة لما ظهرت أيّةُ آية أبدًا من عند الله بعد بعث أول الأنبياء. ولكن الله تعالى لم يفعل ذلك، بل ما زال يرسل بالآيات رغم الإنكار المستمر لها من قبل أعداء الأنبياء. فلا يمكن أن تتوقف الآيات الإلهية من الظهور جرّاء إنكار المنكرين في أي زمن. لقد أظهر اللهُ الآياتِ في زمن آدم، وأيضًا في زمن نوح، كما أظهرها لأمة ثمود التي كانت بعدهما.

لقد خصَّ الله ﷻ قومَ ثمود بالذكر هنا لأن هذا الشعب كان من العرب، وكانت آثارهم الباقية ماثلةً أمام العرب كلهم، سواء كانوا مشركين أو يهودًا أو نصارى، وكان بإمكان هذه الفئات كلها أن تأخذ العبرة من حالات قوم ثمود.

٢- وساق الدليل الثاني قائلاً: إن ظهور الآيات ضروري قبل إنـــزال العذاب، لكي يُنقَذ من العذاب مَن يمكن إنقاذه. وما دمنا ننبّئ بحلول العذاب الشديد في المستقبل بحيث لن تنجو أيةُ قرية في العالم من النوازل والبلايا، فيجب أن يدرك المسلمون من ذلك أن لا بد عندها من ظهور الآيات السماوية أيضًا، لأن إنـــزال العذاب بدون إنذار وتخويف يتنافى مع سنتنا.

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

شرح الكلمات:

أحاط: أحاطَ بالأمر: أحدقَ به من جوانبه. أُحيطَ به: دنا هلاكُه (الأقرب).

فتنة: مصدرُ فَتَنَ؛ الخبرةُ والابتلاءُ؛ الضلالُ والإثم والكفر؛ الفضيحةُ؛ العذابُ؛ المرضُ؛ العِبَرُ؛ اختلافُ الناس في الآراء وما يقع بينهم من القتال (الأقرب).

طغيانًا: طغَى يطغِي وطغِيَ يطغَى: جاوَز القدرَ والحدَّ. طغَى فلان: أَسرفَ في المعاصي والظلم (الأقرب).

التفسير: لقد سبق أن أوضحنا أن الإحاطة تعني احتواء الشيء وحصر جميع أجزائه، كما تعني أيضًا العذاب التام، لأنه إذا تّمتْ محاصرةُ قوم محاصرةً تامةً فلا مفرَّ لهم. أما هنا فينطبق معنى المحاصرة، والمراد: تَذَكَّرْ، يا محمد، ذلك الوقت حين قلنا لك إننا نريد محاصرةَ أهل الدنيا كلها، وضَمَّهم في دائرة واحدة. وهذه الآية تشير إلى الآية الأولى من هذه السورة أعني إلى مضمون الكَشْفِ النبوي الذي يسمى الإسراء، حيث رأى النبي ﷺ أنه قد صلّى بالأنبياء أجمعين، وكان تعبيره أن أمم جميع الأنبياء ستدخل في دينه ﷺ.

وقد أُشير إلى موضوع الإسراء هنا مرة أخرى لأن الآيات السابقة نبّأت عن نـــزول العذاب على الدنيا كلها، فقد بيّن الله تعالى الآن الغايةَ من هذا العذاب، وقال: نستهدف بهذا العذاب تحقيقَ الكشف الذي أريناك في شكل الإسراء، وتحقيقَ نبأِ دخولِ أتباع الأنبياء كلِّهم في حظيرة الإسلام؛ لأن هذا العذاب العالمي سوف يمهّد لتبليغ رسالة الإسلام، حيث ترجع كافّة الشعوب إلى الدين بعد أن تكون قد يئست من المادية، وعندها سيفتح الله بفضله ورحمته قلوبَها لقبول الحق، فتجتمع تحت راية محمد رسول الله ﷺ.

وقد بدأت آثار العذاب الموعود تظهر الآن في العالم، لتُفسح الطريق لانتشار الإسلام على نطاق واسع بإذن الله تعالى.

وقد زاد الله تعالى الأمرَ إيضاحًا في باقي الآية حيث قال ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنةً للناس﴾.. أي أنه كان بإمكاننا أن ندلي بهذا النبأ بألفاظ صريحة واضحة، ولكننا ذكرناه – اختبارًا للقوم – بلغة المجاز والتمثيل على شكل

بعض المشاهد، لكي يؤمن به بعد سماعه مَن يحمل صفات كصفات أبي بكر، ويعترضَ عليه مَن خلا قلبُه من تقوى الله تعالى.

تؤكد هذه الآية أن الآياتِ الإلهيةَ تحمل جانبًا من الاختبار والامتحان، ورغم هذه الحقيقة الناصعة يزعم حتى المسلمون اليوم أن أنباء الله يجب أن تكون واضحةً جليّةً بحيث لا يسع حتى لأكبر غبي في العالم إنكارها، وإلا فلا يمكن اعتبارها نبوءات صادقةً.

وأما قوله تعالى ﴿والشجرةَ الملعونة في القرآن﴾ فيعني أننا كما جعلنا الرؤيا التي أريناكها امتحاناً للناس كذلك قد جعلنا الشجرةَ التي وصفها القرآن بكونها ملعونةً أيضًا لاختبار الناس.

ما هي تلك الشجرة الملعونة؟ لقد اختلف المفسرون في معناها كثيرًا؛ فقال بعضهم إنها شجرة الزقّوم المذكورة في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع هي: سورة الواقعة الآية ٥٣ وسورة الصافات الآية ٦٣ وسورة الدخان الآية ٤٤. (الكشاف، والرازي، وابن كثير). ويقول هؤلاء المفسرون أن القرآن الكريم لما أخبر أن طعام أهل الجحيم الزقوم بدأ الكفار يستهزؤون بالنبي ﷺ لأن الزقوم هو التمر والزبد بلغة اليمن، فقالوا ساخرين: إن الزقوم من أجود الثمار، فما نبغي غير ذلك؟

واستدل المفسرون على صحة قولهم بكون الزقوم قد وُصفت – مثل الشجرة الملعونة – بالفتنة في قول الله تعالى ﴿إنا جعلناها فتنةً للظالمين﴾(الصافات: ٦٤).

ولكن واجهتهم مشكلة أخرى هي أن الزقوم لم توصف في أي موضع في القرآن بكونها ملعونةً! فأجابوا على ذلك أن القرآن يعلن أن الزقوم يوجد في الجحيم، والبديهي أن كل شيء فيها ملعون، لأنها موضع غضب الله تعالى.

ثم أثار هؤلاء بأنفسهم اعتراضًا على تأويلهم هذا قائلين: كيف تصبح الشجرة ملعونةً، لأن الملعون هو الكائن العاصي، ولكن الشجرة ليست من ذوات الأرواح؟ فأجابوا على ذلك بقولهم: سمِّيت ملعونةً لكون آكليها ملعونين.

بينما قال الآخرون: أن الشجرة المشار إليها هي نبات "الكشوث" الذي يتلوى بالأشجار فيقتلها (فتح البيان). علمًا أن الكشوث في الحقيقة اسم لبذور نبات يسمى أفتيمون، له خيوط صفراء تلتفّ حول أغصان الأشجار وتمتص رحيقها حتى تأخذ في الجفاف. والنوع الموجود منه في الهند يسمى أكاسبيل أو أمربيل أو أمرلته، ويسمى في البنجاب كورييبل أي النبات المرّ، ومنه قولهم: أنبتك الله نباتَ كورييبل: أي أن تنمو سريعًا، وتقتل أعداءك كما يقتل هذا النبات الأشجارَ.

ولكن ليس في القرآن ما يدعم هذا التأويل حتى ولا بدرجة الزقوم.

ورُويَ عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لمروان بن الحكم: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لأبيك وجدِّك: إنكم الشجرة الملعونة في القرآن (الدر المنثور). وقال بعضهم: إنها الشجرة الخبيثة التي مَرَّ ذكرُها في سورة إبراهيم (روح المعاني). وكنت أنا أيضًا أفسّر الشجرةَ الملعونة بأنها الشجرة الخبيثة، لأن كل ما سواه من المفاهيم المذكورة آنفًا تتماشى مع باقي ألفاظ هذه الآية. فكنت أقول: الخبيث من الأشياء ما لا خير فيه، ويقول القرآن الكريم عما لا خير فيه: ﴿فأما الزبدُ فيذهبُ جُفاءً﴾(الرعد: ١٨).. أي أن الشيء الرديء يُرمى بعيدًا مثل الزَبَد، واللعنة أيضًا تعني الإبعاد، فما يذهب جفاءً يمكن أن نسمّيه ملعونًا كذلك. ولكني حين جلستُ لتسجيل هذه الملحوظات التفسيرية كشف الله عليّ مفهومًا آخر، وها إني أذكره هنا، لأن هذا المفهوم يبدو أوثقَ صلةً بسياق الآية.

لاستيعاب هذا المفهوم يجب فهمُ معاني الشجرة جيدًا. فبالإضافة إلى معناها المعروف قد ورد في القواميس: "شجرةُ النسب ما يُبتدأ فيها من الجد الأعلى إلى أولاده ثم إلى أولادهم، وهَلُمَّ جرًّا (الأقرب).

وبالنظر إلى هذا المفهوم يمكن أن تعني "الشجرة الملعونة" أسرةً ما زالت أو ستَظلّ عرضةً للعنة الله تعالى لأجيال عديدة. وهذا المعنى تدعمها الروايةُ التي سجّلتُها من قبل والتي تُنسب إلى السيدة عائشة – رضي الله عنها. وبالرغم أن هذه الرواية باطلة عندي، ولكننا يمكننا الاستناد إليها لفهم هذا التعبير العربي، لأن الذين روَوا هذه الرواية والذين سجّلوها في كتب الحديث عربٌ يفهمون التعابير العربية دونما شك.

بعد هذا الشرح والتمهيد تعالوا نَرَ معًا هل كان القرآن الكريم يتحدث عن أسرة ضُربت عليها اللعنة من عند الله تعالى لأجيال وأجيال؟ فإذا وجدنا في القرآن أسرة كهذه فهي الشجرة الملعونة.

وبالفعل تدلّنا دراسة القرآن على أسرة أو أمة ضرَب الله عليها اللعنة لمدة طويلة، وقد سجّل القرآن هذا الأمر في أماكن عديدة نذكر بعضَها فيما يلي:

١- ﴿لُعِنَ الذين كفَروا مِن بني إسرائيلَ على لِسانِ داودَ وعيسى ابنِ مريمَ﴾ (المائدة: ٧٩)

٢- ﴿يا أيها الذين أُوتُوا الكتابَ آمنوا بما نــزَّلْنا مصــدِّقًا لمَا معكم من قبلِ أن نَطمِسَ وُجُوهًا فنَرُدَّها على أدبارِها أو نَلعَنَهم كما لَعَنَّا أَصحابَ السَّبْت﴾ (النساء: ٤٨)

٣- كذلك قال الله تعالى عن اليهود ﴿فبِما نَقْضِهم ميثاقَهم لَعَنَّاهم﴾(المائدة: ١٤).. أي كنّا أخذنا من اليهود وعدهم أنهم سيصدّقون النبي الموعود أي محمدًا رسول الله ﷺ عند ظهوره، ولكنهم لم يُوفُوا بوعدهم هذا فلَعَنَّاهم.

٤- وقال الله لليهود أنتم: ﴿مَن لَعَنَه اللهُ وغَضِبَ عليه وجَعَلَ منهم القردةَ والخنازيرَ﴾(المائدة: ٦١).

٥- ثم قال بعد آيات: ﴿وقالتِ اليهودُ يَدُ اللَّهِ مغلولةٌ غُلَّتْ أَيديهم ولُعِنُوا بِما قالُوا﴾(المائدة: ٦٥).. أي بسبب أحكام الزكاة والتبرعات وغيرها يسخر اليهود من المسلمين قائلين: لا يعطيهم الله الأموال، لأن يده مغلولة مقيَّدة. وبسبب قولهم الوقح هذا قرّر الله تعالى أن يصابوا بمرض البخل وحب المال واللعنة.

فثبت من هذه الأدلة أن بني إسرائيل، الذين كانوا من نسل واحد، قد تعرَّضوا للعنة الإلهية على التوالي، كما لعنهم القرآن الكريم أيضًا، وقال: لا أمن لهذه الأمة أبدًا إلا بطريقين اثنين فقط: إما أن تلوذ بشعوب قوية أخرى، أو تصير مسلمةً.

فأرى أن بني إسرائيل هم الشجرة الملعونة المشار إليها هنا. ذلك أن هذه السورة تتحدث عن هذه الأمة خاصة، حتى إن الرسول ﷺ سمّى هذه السورة "بني

إسرائيل" أيضًا (ابن ماجة: إقامة الصلاة، باب عدد سجود القرآن). ثم إن الآية التي نحن بصدد تفسيرها أيضًا تتحدث عن بني إسرائيل، حيث تشير إلى إسراء الرسول ﷺ الذي رأى فيه أنه في مركزهم، وأنه يصلى هناك بالناس. كما توضح هذه الآية أنه كما كانت رؤيا الإسراء اختبارًا للناس، كذلك كان بنو إسرائيل المذكورون في هذه الرؤيا فتنة لهم أيضا.. بمعنى أنهم سيظلون يعارضون الإسلام بلا مبرر. وبالفعل ترون أنه بالرغم من أن اليهود يتمتعون بالأمن في البلاد الإسلامية أكثر من أي بلد آخر، فإنهم لا ينفكّون يعادون الإسلام، من دون أن يدركوا أن الإسلام هو الملاذ الوحيد لهم، وإلا فلن يزالوا هدفًا لمظالم الدنيا. ولذلك قال الله تعالى في آخر الآية إننا ما زلنا نحذّر هذا الشعب مرارا وتكرارا من المصير الذي ينتظرهم، ولكن لا يزيدهم ذلك إلا طغيانًا وعدوانًا.

أما صلة هذه الآية بما قبلها فهي كالآتي: لقد أخبر الله تعالى من قبل عن وقوع عذاب عالمي هائل، وقد بيّن في هذه الآية أن هذا العذاب العالمي نتيجة طبيعية لرؤيا الإسراء، لأن غلبة الإسلام منوطة بذلك العذاب، حيث قدّر الله تعالى انتشار الإسلام بعده انتشارًا عالميًّا واسعًا.

وقد ذكر اليهودَ مباشرةً لينبّه أن هذا الشعب أيضًا فتنة، بمعنى أن هذا الشعب الشرير الفتّان سوف يوقظ الفتنة الثانية. وبالفعل لم تنشب الحرب العالمية الأولى ولا الحالية إلا بسبب اليهود. ففي الحرب الأولى عمل اليهود ضد ألمانيا بخطة منظَّمة، فكان أن بدأ الألمان يصبوّن عليهم العذاب انتقامًا؛ فاستغل اليهود هذا الأمر، وقاموا بالدعايات الواسعة حتى نشبت الحرب الحالية. واليهود أكبر المسؤولين عن الانقلاب الحاصل في روسيا، والذي هو جزء من هذا العذاب نفسه؛ لأن عددًا من الزعماء الروس الكبار هم من نسل يهودي.

لقد سبق أن نشرتْ بعض الجرائد قبل الحرب العالمية الأولى وثائق يهوديةً سريةً تكشف عن مؤامرة اليهود لإشعال حرب عظيمة يمهّدون بها للعودة إلى فلسطين، ولقد أكدت الأحداث ما ذكرته الجرائد. ولكن القرآن الكريم يخبرنا أن

استيلاءهم على فلسطين أمر مؤقت، ولا يمكن أن يدوم طويلا، لأن الله تعالى قد كتبها للمسلمين للأبد.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦٢﴾

شرح الكلمات:

لآدمَ: للام الجارة اثنان وعشرون معنى منها المعيّة، قال الشاعر:

فلما تَفرّقْنا كأني ومالكا لِطُولِ اجتماعٍ لم نَبِتْ ليلةً معا (مغني اللبيب، حرف اللام).

فـــاللام في (لِطُـــول) جاءت بمعنى "مع". فقوله تعالى ﴿اسجدوا لآدم﴾ يعني: اسجُدوا مع آدم.

إبليس: راجِعْ شرح الآية رقم ٣٢ من سورة الحجر.

الطين: ترابٌ أو رَمْلٌ وكِلْسٌ يُجعَل بالماء ويُطلَى به (الأقرب).

التفسير: تتحدث الآيات السابقة عن طغيان اليهود وتمردهم، وتوضيحا للموضوع نفسه ذكر الله هنا قصةَ آدم على سبيل التمثيل، ليخبر أن الأنبياء ما زالوا هدفًا للمعارضة في كل عصر. فهذا آدم أبو البشر الذي كان أول نبي أيضًا قد عاداه أحدُ الأبالسة زاعمًا: أنا خير منه، فكيف أطيعه. واليهود أنفسهم واقعون في الاختبار نفسه، حيث يرون أنهم خير من محمد رسول الله وقومه، وذلك لاعتقادهم الراسخ أن بني إسحاق قد احتكروا جميع البركات الإبراهيمية، وأن بني إسماعيل محرومون من هذا الإرث الإبراهيمي الروحاني. فهذا هو الاستكبار الذي سيحول دون إيمانهم.

قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٣﴾

شرح الكلمات:

كرَّمتَ: كرَّمه تكريمًا وتَكْرِمةً: عظَّمه ونزّهه (الأقرب).

لأَحتنكَنَّ: احتنَكَ الفَرَسَ: جعَل الرسنَ في فيه. احتنكَه: استولى عليه. احتنك زيدًا: أخَذ مـــالَه كلَّه. احتنك الجرادُ الأرضَ: أكَل ما عليها وأتى على نباتها (الأقرب).

التفسير: أي أن الشيطان طلب بلسان حاله من الله تعالى أن يُمهله حتى زمن ازدهار بني آدم، ليُريه كيف يُلجِمهم ليسوقهم حيثما شاء.

(لمعرفة المزيد عن قصة آدم والشيطان راجعْ تفسير الآية رقم ٢٧ من سورة الحجر)

مع العلم أن "القيامة" تعني هنا زمن رقي المؤمنين، إذ تقوم القيامة على الكفار حينئذ في شكل دمارهم، وعلى المؤمنين في شكل رقيّهم.

وأما قول الشيطان ﴿إلا قليلا﴾ فيعني أن قليلا من الناس ينجون من سيطرتي، أو أن قليلا من أعمالهم ستكون لله تعالى، ومعظمها تكون من أجلي.

يزعم البعض أن الشيطان قام بادعاء كبير، ثم حقق ما ادعى، حيث تحدّى وقال ﴿لأَحتَنكَنَّ ذُرّيّتَه﴾؛ وبالفعل نرى أن الخير في الدنيا قليل، والشر كثير؛ ولكن الله تعالى لم يستطع أن ينجز ما أعلنه إزاء تحدّي الشيطان، فإنه تعالى قال ﴿وما خلَقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدونِ﴾، ومع ذلك نرى أن أكثر الناس ليسوا عبادًا لله، بل أصبحوا عبادًا للشيطان؟

إن هذا الاعتراض ناتج عن قلة التدبر، لأن الشرّ في الواقع أقلّ من الخير بكثير. خذوا مثلاً أكبر الكذابين في العالم، فلو جمعنا كلَّ ما نطق به من كلام في سائر حياته لوجدنا صدقَه أكثر من كذبه. ونفس الحال بالنسبة للسيئات الأخرى. فالحق أن أكثر الناس في الدنيا نياتهم صالحة، ويسعون لفعل الخير قدر المستطاع،

وإن كانت الأهواء النفسانية تصرعهم أحيانًا. فمن الخطأ القولُ أن الشيطان نجح في مرامه. إننا نرى أن أحدًا إذا ارتكب سيئة، ولو صغيرة، انتشر خبره على نطاق واسع؛ وهذا أيضًا يشكّل برهانًا على فشل الشيطان، إذ يدلّ على نقاوة الفطرة الإنسانية التي لا تتحمل السيئة وإن كانت صغيرة.

قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ﴿٦٤﴾

شرح الكلمات:

موفورًا: الموفور: الشيءُ التامُّ. وجزاءٌ موفور: لم ينقص منه شيء (الأقرب).

التفسير: قوله تعالى ﴿فإن جهنّمَ جزاؤُكم جزاءً موفورًا﴾ يعني أن كل واحد منهم سينال هنالك جزاء كاملا، ولكن لا يعني ذلك أن الله تعالى لن يخفّف من عقابهم شيئًا، لأن الثابت من القرآن الكريم أن سنة الله تعالى في العقاب أن يفضّل الرحمة والعفو دومًا. إن كلمة ﴿موفورًا﴾ إنما تعني أن العقاب شيء لا يمكن أن يطلب الإنسان مزيدًا منه، وأن كل واحد في الجحيم سيكون مشغولاً بعقابه بحيث لن يمكنه التفكير في شيء آخر.

ويتضح من هذه الآية أن هذا العقاب سيكون نفسانيًّا، وأن كل واحد سيلقى العقاب بحسب حالته القلبية، شأن الشجرة التي تمتص الغذاء وفقًا لحالتها الطبيعية من الأرض. لقد أتى إلى الدنيا ملايين الملايين من البشر وسيجيئون في المستقبل أيضًا، ولكن لا يوجد فيها حتى شخصان يتشابه قلباهما تشابهًا كاملا، بل حالة قلب كل واحد مختلفة، ومن ثم يجب أن يكون عقاب كل إنسان أيضًا مختلفًا عن الآخر؛ ولا يمكن تحقيق ذلك إلا إذا كان العقاب نفسانيًّا، فيتحمل كل إنسان النتائج الطبيعية لأعماله.

وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾

شرح الكلمات:

واسْتَفزِزْ: استفزّه الخوفُ: استخفّه واستدعاه. واستفزّه من الشيء: أخرجه. استفزّ فلان فلانًا: أخرجه من داره وأزعجه، ويقال: خَتَلَه حتى ألقاه في مهلكة؛ قَتَلَه (الأقرب).

أَجلِبْ: أجلبَ القومُ: اختلطت أصواتهم وضَجُّوا؛ تجمَّعوا من كل وجه للحرب، وفي القرآن: ﴿وأَجْلِبْ عليهم بخيلك ورَجِلك﴾.. أي صِحْ (الأقرب).

خَيلك: الخيل: جماعةُ الأفراس، لا واحد له؛ والفرسانُ على المجاز أي رُكّابُ الخيل، ومنه قولُ القرآن ﴿وأَجْلِبْ عليهم بخيلك ورَجِلك﴾.. أي بفرسانك ومُشاتك (الأقرب).

رَجلك: الرَجِل: جمعُ الراجِل وهو مَن ليس له ظَهْرٌ يركَبه (الأقرب).

التفسير: قوله تعالى ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ استطَعتَ منهم بصوتك﴾ يبيّن أن الإنسان يكون في أول أمره في مقام الخير، فإذا أثّر فيه الشيطان انزلق من مقامه الأصلي إلى مقام الشر. وهناك بون شاسع بين النظرية المسيحية والنظرية الإسلامية في هذه القضية، حيث ترى المسيحيةُ أن أصل فطرة الإنسان هو الشر، ويُؤتَى بالإنسان من مقام الشر إلى مقام الخير من خلال الكفّارة (دنيا كا منجي (أي مخلِّص العالم) ص ٢١). بينما يعلن الإسلام أن الخير هو المقام الأصلي للفطرة الإنسانية، ولكن الشيطان يُزلّ قدمَه من الخير إلى الشر.

وفي قوله تعالى ﴿بصوتك﴾ إشارة إلى أن بعض الطبائع البشرية تبلغ من الضعف بحيث تصاب بالهلع بمجرد سماع التهديدات، أو تنتابها الشبهات بسماع الاعتراضات. إنها لا تملك الشجاعةَ للصمود ولا الهمةَ للتحقيق.

لقد نبّهنا الله تعالى هنا إلى أنواع مختلفة لهجمات الشيطان. فهناك من يهدّده الشيطان لينضمّ إليه.. بمعنى أن أصحاب الطبائع الشيطانية يهدّدون فقراء الناس وضعفاءهم ليمنعوهم من الانضمام إلى جماعة الأنبياء. وهناك من يمنعه الشيطان من الخير بالاستعانة بمُشاته وفرسانه.. بمعنى أن هؤلاء الأشرار يعرّضون الناس لصنوف الأذى والتعذيب. وهناك من يدمّرهم الشيطان عن طريق التقاليد الفارغة والصُحبة الفاسدة. وهناك مَن يُغريهم الشيطان بالمال والثراء ليمنعهم من قبول الحق. ولكن الذين في قلوبهم الإيمان لا يذعنون لإغراء الشيطان أو تهديده، وإنما يذعن له الذين في قلوبهم مرض.

وأما قوله تعالى ﴿وشَارِكْهم في الأموال والأولاد﴾ فمعناه أن أعوان الشيطان يجمعون كل قوة، حيث يتحزبون ضد الأنبياء، كما يجمعون أموالهم وأولادهم لشنّ هجومٍ موحَّد عليهم.

لو تَدبّرنا هذه المكائد الشيطانية لوجدنا أن أئمة الكفر يلجأون إلى ثلاثة أنواع من الحيل ضد رسلهم. فيستخدمون ضد الضعفاء سلاح التهديد والتخويف. وأما الذين هم مِثلُهم في القوة فيسعون لضمّهم إلى صفوفهم على مبدأ اتحاد القوم والعشيرة. وأما الذين هم أكثر منهم قوةً فيحاولون إغراءهم بالغنيمة أو الزعامة. وفي تاريخ الأنبياء أمثلة كثيرة لتضليلهم لهذه الفئات الثلاث باستخدام هذه الحيل الثلاث، وتبلغ هذه الأمثلة من الكثرة والتواتر بحيث لا داعي لكتابة المزيد في هذا المجال.